العربي بنعبد الله

ذاكرة مناضل

1955 - 1943

السيد عبد العزيز بنعبد الله

58

من الرجالات الأفذاذ، والعلماء الأجلاء الأعلام والنشطاء الرائدين المنخرطين في الحركة الوطنية الذين أنجبتهم مدينة الرباط، نجد السيد عبد العزيز بنعبد الله. أجل إن هذا الرجل يمثل نموذجا حيا للنشاط الفكري والثقافي والوطني في جميع المجالات وعلى كل الأصعدة والمستويات. كان وما زال الجندي المجهول الذي يعمل في الخفاء والسرية التامة يمج الظهور والمباهاة، ولا يتوق إلا لإرضاء ضميره وحسب ما يمليه عليه عقله المتنور بنور الله والدين والعقيدة. إذ الرجل نشا في عبادة الله، ناسك وزاهد، لا يفتر لسانه عن ذكر الله، ملتزما بأوراده فهو إن شاء الله من الذين سيظلهم الله في عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

نشأ في بيت علم، فهو عالم ابن عالم تربي في أحضان والده الذي اهتم بتكوينه تكوينا مثاليا لما لاحظ فيه من الاستعداد الكامل والأهلية للاستيعاب والإدراك تجاوزت إمكانات أترابه. وهكذا تجلت عبقريته في سن مبكرة حين أتم حفظ كتاب الله عن ظهر قلب بالكتاب القرآني، وكذا متون العلوم الإسلامية قبل أن يلتحق بمدرسة أبناء الأعيان حيث حصل على الشهادة الابتدائية ومنها التحق بإعدادية حي الليمون، ثم بثانوية "غورو" التي لم يمكث بها إلا قليلا حيث قرر الاعتكاف بالمنـــزل ليطوي مراحل الدراسة الثانوية، وهكذا تقدم حرا إلى امتحان الباكالوريا لينجح فيها بتفوق كبير.

وبإزاء دراسته الثانوية كان الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله يتردد على دروس الشيخ شعيب الدكالي والعلامة محمد المدني بن الحسني والفقيه القاضي محمد الرندة والفقيه عبد الرحمان الشفشاوني والفقيه محمد لعوينة وكذا على دروس والده العلامة السيد عبد الواحد بنعبد الله. وبهذا حصل على رصيد هائل من العلوم على مختلف مشاربها من فلسفة وتفسير لكتاب الله والأدب

والأصول والمنطق والنحو ومختلف العلوم الإسلامية. وقد ساعدته كل الدروس وكذلك مطالعته للكتب العلمية بمنـــزله وبغزارة على الحصول بسهولة على الإجازة في الحقوق والآداب، كذلك تمكن السيد عبد العزيز بنعبد الله من التضلع في الفرنسية بفضل دراسة اللاتينية بثانوية كورو.

بمجرد انتهائه من الدراسة والتحصيل دعاه حزب الاستقلال إلى الالتحاق بجريدة "العلم" وهي في أول عهدها، وسرعان ما ظهر نبوغه وتفوقه في الكتابة والتحرير، فأناط به الأستاذ أحمد بلافريج مسؤولية الترجمة إلى العربية كل ما يرد على الجريدة من وكالات الأخبار باللغة الفرنسية وكذا تحرير كلمة "العلم" اليومية التي تعبر عن وجهة نظر الحزب في مختلف المواضيع، ويقوم بهذا العمل باتصال يومي وبتنسيق الأستاذ أحمد بلافريج. وقد توطدت بين هذين الرجلين عرى صداقة وثيقة لم تنفصم عراها قط.

كان السيد عبد العزيز يعتبر السيد الحاج أحمد بلافريج أستاذا له في ميدان الصحافة وذلك بفضل توجيهاته المتعددة إبان عمله بالعلم.

وقد احتل السيد عبد العزيز مكانة مرموقة لدى اللجنة التنفيذية بحزب الاستقلال حيث أصبح محررا لتقاريرها ومنشوراتها المعدة لجميع الدوائر الخارجية والداخلية ومترجما لها. وقد أهلته جديته وكفاءته لتحمل هذه المسؤوليات الخطيرة، ولم يكن يعلم بهذا الأمر إلا بعض من أعضائها وبالخصوص منهم السادة: علال الفاسي و الحاج أحمد بلافريج و محمد اليزيدي والمهدي بن بركة، وكثيرا ما كان يشتغل بمنـــزله إذا اقتضى الأمر وحين يستوجب الأمر سرية النصوص والأجل القصير الذي يتطلبه إنجاز العمل.

ولعل الفرنسيين قد سمعوا بنشاط وكفاءة هذا الرجل، فاستدعاه المقيم العام إيريك لابون إلى مائدة أقامها على شرفه. وبعد استشارة الحاج أحمد بلافريج عن رأيه، وافقه علما منه أن السيد عبد العزيز سيعرف كيف يواجه الموقف مهما كان دقيقا. وهكذا استغرقت المقابلة ردحا غير يسير من الزمن، حيث تطرق المقيم العام مع ضيفه إلى عدة مواضيع طالبا منه إبداء رأيه فيها. لقد اندهش المقيم لغزارة أفكار ووضوح أجوبة هذا الشاب واطلاعه الواسع على ماجريات الأحداث وكل هذا بعبارات أنيقة وصقيلة بالفرنسية رغم صغر

سنه، إذ كان لا يتجاوز سنه 23 سنة. ولقد دحض السيد عبد العزيز جميع أفكار المقيم بأدلة لا تقبل الطعن، وبكل هدوء ودون أي انفعال، كان حينما يدلي بشهادة تاريخية أو مرجع من المراجع كثيرا ما يستدل بمؤرخين فرنسيين خاصة أو أوربيين عامة، الأمر الذي كان المقيم يجهله تماما. وعندما هم المقيم بتوديع ضيفه مهنئا وشاكرا، اقترح عليه أن يلتحق بالإدارة ويختار من المناصب العليا ما يرغب فيه ويلائم اختصاصاته وما عليه إلا أن يقدم له طلبا مكتوبا في الموضوع واعدا إياه بتلبيته، وكم كانت دهشة المقيم العام كبيرة، حينما أجابه السيد عبد العزيز على الفور، معتذرا عن قبول العرض لأنه سبق أن قدم ملتمسا في الموضوع إلى صاحب الجلالة الملك. وقد أعجب بهذا الموقف كل أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب وزاده هذا تقديرا واحتراما لديهم.

وبعد صدور جريدة "الاستقلال" بالفرنسية، كلفه الحاج أحمد بلا فريج بالإشراف على القسم الثقافي بها حيث تصدى لكل ما يمس أصالة المغرب وتاريخه بالتمويه المغرض من لدن المستعمر، فبرز في هذا المجهود الرصين وأكتسب به شهرة لدى الخاص والعام، حتى أن الحاج أحمد بلا فريج صرح في مجمع من الكتاب بأن العمل الذي يقوم به عبد العزيز بنعبد الله في الميدان الثقافي لا يقل أهمية عن العمل السياسي الذي تنهض به الحركة الوطنية.

كما تقدم، يتحلى الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله منذ نعومة أظفاره بروح صوفية تزداد رسوخا بازدياده علما ومعرفة. فألف في هذا الموضوع كتبا عدة أصبحت مرجعا للباحثين بالفرنسية والعربية. وبهذا يرى بنور ربه لا يخاف ولا يهاب لأنه محاط برضى ربه الكريم يرى بنوره ما لا يراه غيره من عامة الناس.

إنني أتذكر بعدما أقدمت السلطات الفرنسية على نفي ملك البلاد وبقي هو وثلة من الوطنيين أحرارا لم يلق عليهم القبض، وقد جمعتهم الأقدار في عمارة واحدة يسكنون بها حيث اجتمعوا يتبادلون أطراف الحديث حول الواقعة التي أقضت مضجع كل الناس حتى أصابهم اليأس والقنوط. تناول الكلمة، وسبحة الأذكار بيده، وسارع إلى طمأنة الإخوان بكلام لم يعهد مثله من قبل: لا تنسوا الله أيها الإخوان فالخطب حقا جلل، ولكن الله أكبر مما تتصورون، إنه امتحان لنا ينبغي أخذ العبرة منه، لنشمر على سواعدنا ونعمل ما تمليه الظروف، إذ لا مجال للخنوع في هذا الوقت. وإذا عملنا بهذا المبدأ لا بد أن الله سبحانه سوف

لا يخيب ظننا، وسيعود محمد الخامس بعد سنتين على الأكثر حاملا معه البشائر كلها، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أنفض الجمع، وأعضاؤه كلهم حماس للعمل المجدي ومندهشين لحجم التفاؤل الذي أبداه السيد عبد العزيز، وتحقق ما رآه مما يدل على أنه كان وما زال يرى حقا بنور الله.

إنني لا أدعي الإحاطة بكل ما قام به هذا الرجل الفذ في ميدان النضال السياسي سواء في عمق المعمعة أو في الكواليس وخصوصا خلال الأيام العصيبة التي كانت تفرضها سلطات الحماية على الشعب المغربي عموما وعلى الوطنيين الأحرار خصوصا. لقد كان السيد عبد العزيز يعرف أهمية دوره حينما يقبض على زعماء الحزب وبالخصوص أثناء الأزمة الأولى لعام 1951 والثانية لعام 1953 التي فجرت الثورة وكانت هي بداية نهاية الاستعمار ببلادنا، وهي الفترة التي قرر الحزب فيها دعم نشاطه السياسي بالعامل الاقتصادي الذي أصبح له دور طلائعي فشكل لجنة اقتصادية عليا من ستة أفراد هم السادة الحاج عمر بن عبد الجليل وعبد الكريم بن جلون والمهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد وعبد العزيز بنعبد الله ومحمد لغزاوي.

في هذه الظروف العصيبة المشحونة بالأهوال المترتبة على الاعتقالات والنفي لقيادة الحزب بأكملهم وأعضاء مكاتب الفروع في سائر أنحاء المغرب، واختتمت بنفي الملك المفدى، وإعلان حالة الطوارئ وإعدام العديد من الوطنيين، في هذا الجو المكفهر، كان السيد عبد العزيز قد حافظ في ذهنه على علاقاته الماضية مع وكالات الأخبار الأجنبية الموجودة بالرباط أو الدار البيضاء التي استعملها في سرية كبيرة وبدون علم أي كان حيث انزوي بمسكنه ولا يغادره إلا للتوجه إلى الزاوية التجانية تارة وزاوية سيدي العربي بن السايح تارة أخرى لأداء الصلاة وحضور "الوظيفة" وفي هذه الأثناء تقع اتصالات عادية مع جمهرة المصلين يستقى منهم الأخبار عن الأحداث التي وقعت بالمدينة في ذلك اليوم ليبث منها ما هو صالح للنشر إلى وكالت الأخبار المذكورة. وقد دامت هذه المجهودات الفردية مدة سنتين. حيث توقفت بمجرد رجوع الملك إلى عرشه مظفرا.

يعد كل ما أوردته في هذا التقرير الموجز عن نشاط السيد عبد العزيز قطرة من فيض مما قدمه في فترة محدودة في الزمان والمكان، إذ بعد إعلان الاستقلال التي اعتبرها السيد عبد العزيز نقطة تحول في مساره السياسي بخروجه من الجهاد الأصغر وولوجه مجال الجهاد الأكبر، فقد أصبح بناء المغرب المستقل هاجسه الأول ومن هنا انطلق هذا النشاط المكثف حيث نادى عليه الزعيم أحمد بلافريج ليلحقه بوزارة الأوقاف ليعمل جنبا إلى جنب مع صديقه السيد المختار السوسي الذي كان يكن احتراما وتقديرا لا حد لهما للسيد عبد العزيز ويثق في كفاءته ونزاهته ثقة كاملة فعينه مديرا عاما لديوانه فأصبح هدفه الأول بهذه الوزارة هو ترسيخ دعامتها بنزع كل الاختصاصات والمسؤوليات من أيدي المسئولين الفرنسيين ووضعها بأيدي مغاربة أكفاء وكذلك إعادة هيكلة هذه الوزارة بتعيين ذوي الأهمية لتحمل أعباء التدبير والتسيير في جميع أنحاء المغرب.

اعتبر الإخوان أن مهمة السيد عبد العزيز قد انتهت بوزارة الأوقاف بنجاحه في تحقيق الأهداف التي رصدها لنفسه، فتقرر تعيينه مديرا عاما بإدارة المحافظة العقارية، حيث كانت تسيطر عليها مائة بالمائة عناصر فرنسية تحت غطاء التقنية الطبوغرافية التي لا تتوفر أطرها لدى المغاربة. أدرك الأخ عبد العزيز ولأول وهلة من تقلده لهذا المنصب أن الأمر بهذه الإدارة لا يتطلب فقط تغيير موظفين فرنسيين بآخرين مغاربة بل كان يقتضي تكوينا سريعا لخبراء مغاربة في ميدان التحفيظ العقاري قبل الشروع في الاستغناء عن المهندسين الفرنسيين. ولم يكن هذا الأمر بالسهولة التي يتصورها الكثير، ولكن حين تتوفر الإرادة القوية والنية الحسنة يهون كل أمر مهما تعقدت مشاكله وتعقيداته. فاقتحمها السيد عبد العزيز بكل قوة وعزيمة، وكان النجاح حليفه، فتمغربت إدارة التحفيظ بنسبة عالية وفي وقت وجيز كما تعربت لغة التداول والكتابة بها، الأمر الذي أذهل ما بقي من الفرنسيين القلائل بمراكز المسؤولية.

وفي سنة 1958 اقترحه الحاج أحمد بلافريج لمنصب وزير العدل فأوعز السيد عبد العزيز لمخاطبه بكل لباقة إبعاده عن هذا المنصب لما يكتنفه من مواقف لا تنسجم وطبيعته ومبادئه بالنسبة لصيانة حقوق المتقاضين، وهو الرجل ربما الوحيد الذي يرفض " الوساطة "والتوصيات" مهما بدت بسيطة في

أعين الآخرين لأن فيها مساس بالحقوق. ورشح كذلك لمنصب سفير متنقل لبلاده في القارة الإفريقية إلا أنه مرة أخرى التمس من الحاج أحمد أن يعتذر لدى جلالة الملك لأن صحته لا تساعده على التنقل والأسفار النائية. إلا أن جلالة الملك محمد الخامس لم يمهله طويلا حتى رشحه ليكون خبيرا في الشؤون الإفريقية لدى هيئة الأمم المتحدة لفترة الدورة الأخيرة لعام 1960. فتوجه إلى نيويورك هو والأستاذ أحمد عصمان بإشراف وزير الخارجية إذ ذاك الذي أبلغه أمر صاحب الجلالة بوضع "كتاب أبيض" بالفرنسية وتوزيعه على أعضاء الجمعية العمومية.

وبمجرد عودته من مهمته بأمريكا وهو ما زال مديرا للتعليم العالي والبحث العلمي، اقترح الحاج أحمد على جلالة الملك تعيينه للقيام بعمل آخر في إطار دولي ضمن الجامعة العربية كمدير عام لمكتب تنسيق التعريب في الوطني العربي، وقد أبلى بلاء حسنا في هذا المكتب وأنتج أعمالا تعتبر قياسية في حجمها وجودتها اعترف له الجميع بهذا بالإضافة إلى الأستاذية بكلية الآداب ودار الحديث الحسنية وجامعة القرويين والمدرسة الإدارية الوطنية.

كما قام السيد عبد العزيز بإلقاء محاضرات قيمة وفي جميع المواضيع في الجامعات والكليات والأكاديميات بجميع القارات وباللغتين العربية والفرنسية. وقد بلغت إصداراته في هذا المجال العشرات من المؤلفات من مختلف العلوم : القانونية والدينية والاجتماعية والتاريخية ألخ.... وكذا معاجم مختلفة في تعريب المصطلحات العلمية المحدثة. كما كان إسهامه في الحركة الفلسطينية أمرا مشرفا، إذ كان يصدر مجلة باللغتين العربية والفرنسية عنوانها " القدس" لتثبيت عروبتها بالحجة والبرهان على مدى التاريخ البعيد والقريب، وقد لعبت هذه المجلة دورا مهما بالخصوص في المحافل الدولية التي كانت السفارات بالرباط وكذا بالخارج تطلبها بإلحاح للتملي بما احتوت عليه من أمور لم تكن لتعلم بها فتتخذها بدورهم سندا للدفاع عن قضية فلسطين وقضية القدس معا.